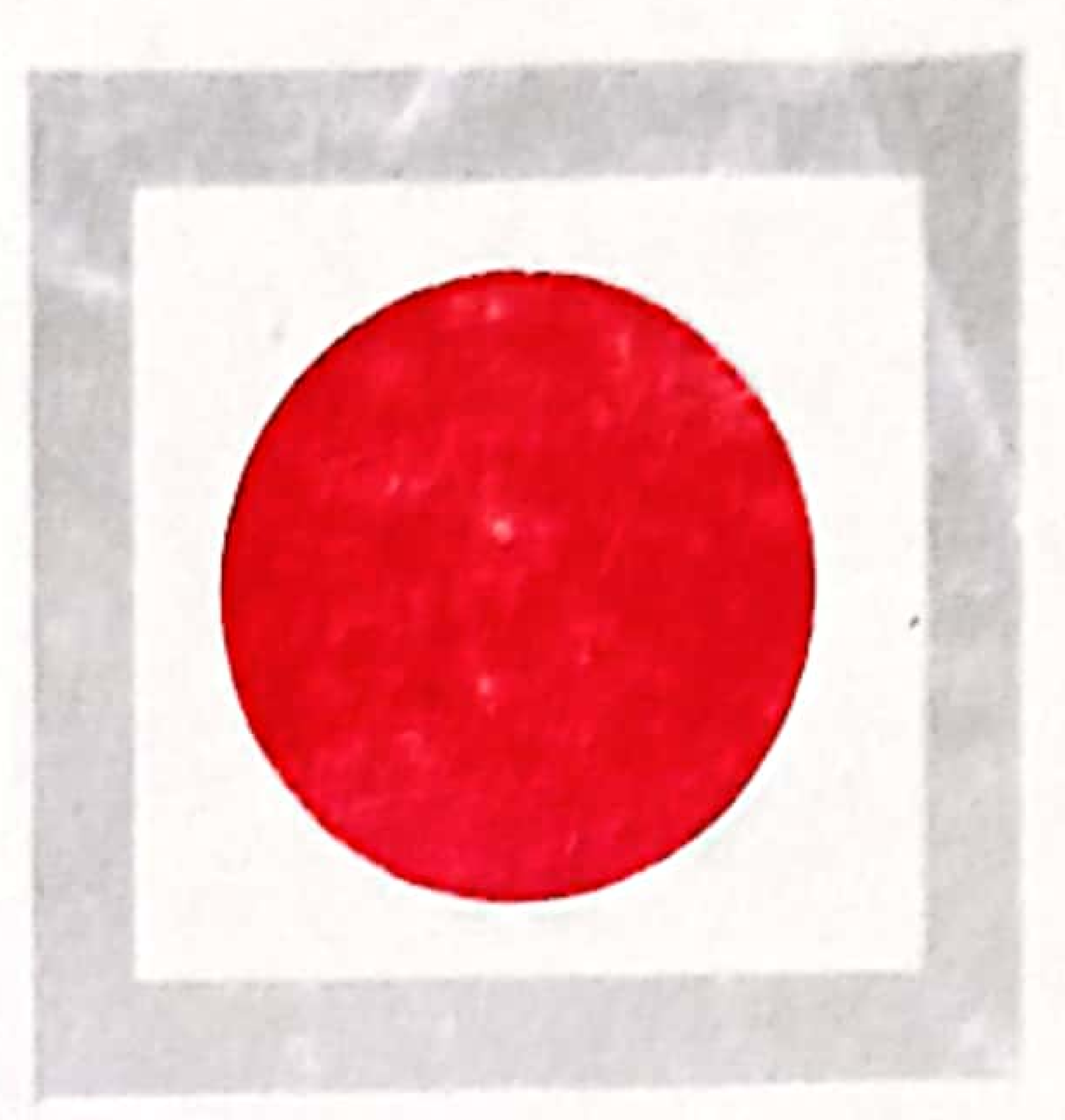




• ثقافة لجميع الأولاد •

ملك الموسيقى



وصفى آل وصفى • كامل حمادة



قُوَّادٌ و رُوَّاد



المُوسِيقَار سَيِّد دَرْوِيش

للأستاذين

وَصْفِي آل وَصْفِي   كامل حماده

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
تأسست سنة ١٩٣٨

صَاحَ « عرَبى » يَسْأَلُ ابنَةَ عمِّه الصَّغيرَةَ وَهو يَفْتَحُ لها بابَ العَرَبةِ :

ـ أَيْنَ ذَهَبْتِ يا « عَلْيَاءُ » ؟ تَأَخَّرْت كَثيرًا !

فابتسَمَتْ عَلْيَاءُ وقالَتْ تَعْتَذِرُ :

ذَهَبْتُ أُوَدِّعُ صَدِيقَتِي قَبْلَ سَفَرِنَا إِلَى الإِسْكندرِيَّةِ .. وها أَنا أَلْحَقُ بِكُم !

اسْتَعْجَلَتْهَا والِدَتُهَا قائِلَةً :

ـ لَكِنَّنَا رَكِبْنَا العربَةَ كما تَرَيْن ! هَيَّا اصْعَدِى إِلى جوَارِ عرَبى . .

فَصَعِدَتْ عَلْيَاءُ إِلى العربَةِ وأَخذَتْ تقولُ برقَّةٍ :

ـ الحقيقَةُ أَنَّنى وجَدْتُ صديقَتِى مشغولَةً

بإضافَةِ عدَدٍ من طوابِعِ البَرِيدِ إلى مَجْمُوعَتِها الجَمِيلَة ..

وبَيْنَما عَمُّها يقُودُ العربَةَ فى طَرِيقِ الإسْكَندَرِيَّةِ تابَعَتْ حَدِيثَها قائِلَةً :

– كانَ مَنْظَرُ الطَّوابِعِ جذَّابًا جدًّا بأَشْكَالِها المُخْتَلِفَةِ وأَلْوَانِها المُتَعدِّدَةِ . ومِنْ بَيْنِها مجمُوعَةٌ بِهَا صُوَرٌ لِشَخْصِيَّات عَظِيمَة : مُلُوكٍ ، ورُؤَساءَ ، وأَبْطَال ! واسْتَرْعَى انْتِبَاهِي بَعْضُ تلك الصُّوَرِ ، فسأَلْتُ صديقَتِي عنْهُم ..

وَبَدَتْ علَيْها الْحَمَاسَةُ وَهِيَ تُضِيفُ :

– آه لَوْ أُصبِحُ كصَدِيقَتِي ! إنَّها تَحْفَظُ تارِيخَ كُلِّ طابِع ، وتارِيخَ الشَّخْصِيَّةِ الَّتى يَحْملُ صُورَتَها !

سأَلَهَا عربِى وَهُوَ يَبْتَسِمُ :

— تُرَى مَنْ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَرْعَت صُوَرُهُمْ انتباهَكِ يا عَلْياءُ ؟

فوضَعَتْ عَلْيَاءُ أُصْبَعَهَا على جَبِينِهَا تَقُولُ :

— أُخْبِرُكَ حالًا ! مَنْ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الأَشخاصِ يا عَلْياءُ ؟ مَنْ يكُونُون ؟ مَنْ ؟ ! آه !

مِنْ بَيْنِ الطَّوَابعِ الَّتى شَاهَدْتُهَا طابِعٌ يَحْمِلُ اسْمَ « سَيِّد دَرْوِيش » وصُورَتَهُ ، وهو صادِرٌ عامَ ١٩٥٨ !

سيِّد دَرْوِيش مَلِكُ الْمُوسِيقَى !

هكذا قالَتْ صَدِيقَتِى ، وقَبْلَ أَنْ تُتِمَّ كَلَامَهَا علاَ نَفِيرُ السَّيَّارةِ يُلِحُّ فى دَعْوَتِى فوَدَّعْتُ زَمِيلَتِى ونَزَلْتُ فى الْحَال !

عِنْدَئِذٍ أَدارَ عَمُّها مِفْتَاحَ الْمِذْياع وقالَ :

— إِذَنْ نُعَوِّضُكِ عَنْ حِكايَةِ مَلِكِ الْمُوسِيقَى ،

ومَا إِنْ سكتَتِ الْمُوسيقَى حتَّى قالَتْ عَلْياءُ وَهِيَ تَضْحَكُ :

ـ هَذَا النَّشِيدُ فيهِ شَيءٌ يَجْذِبُنِي ، فَفِي كُلِّ مَرَّةٍ أَسْمَعُهُ أُرَدِّدُهُ مَعَ الْمُنْشِدِين !

فضَحِكَ عرَبِي بدَوْرِهِ وقالَ :

ـ لِأَنَّ مَطْلَعَهُ كَلِمَاتٌ وَطَنِيَّةٌ عَظِيمَةٌ قالَهَا الزَّعِيمُ « مُصطَفَى كامِل » ، وَلِأَنَّ بَقِيَّةَ كلماتِهِ ، ولَحْنِهِ الجَمِيل من تـأليفِ مَلِكِ الْمُوسِيقَى الْعَرَبِيَّةِ الَّذِي رأَيْتِ صُورَتَهُ على طابِعِ الْبَرِيدِ عِنْدَ صَدِيقَتِكِ يا علياءُ . .

وَهُوَ الْمُوسيقَارُ الْمِصْرِيُّ سَيِّد دَرْوِيش !

أَخَذَ والِدُ عَرَبِى يتَحَدَّثُ وَهُوَ يَقُودُ العَرَبَةَ فقالَ :

- وُلِدَ سيِّد دَرْوِيش عامَ ١٨٩٢ فى حىِّ « كُوم الدكَّة » بمَدِينةِ الإِسكندرِيَّةِ ، وكَانَ والِدُهُ نجَّارًا فِى ذَلِكَ الحَىِّ الشَّعْبى . فلما بَلَغَ الخامِسَةَ أَرْسَلَهُ والِدُهُ إِلَى « كُتَّابِ حسن حلاوة » ، القَرِيبِ من مَنْزِلِه . .

ضَحِكَتْ عَلْيَاءُ تقولُ :

- حلاوة ؟ يا حلاوة !

فضَحِكَ الجَمِيع . .

وعقَّبَ والِدُ عَلْيَاءَ قائِلًا :

- فِى ذَلِكَ الكُتَّاب الَّذى يُضْحِكُك اسْمُهُ

يا عَلْيَاءُ ، كان يَعْمَلُ مُدَرِّسٌ يَهْوَى الْمُوسِيقَى .
وعَرَفَ ذَلِكَ الْمُدَرِّسُ حُبَّ تِلْمِيذِهِ الصَّغِيرِ سَيِّد
دَرْوِيش لِلأَلْحَانِ ، فاهْتَمَّ بِهِ وجَعَلَهُ يَقُومُ
بِتَدْرِيبِ زُمَلائِهِ عَلَى الغِنَاءِ وتَلْقِينِهِمْ ما يَحْفَظُ
مِنْ أَناشِيد .. وكان لِهَذا أَثَرُهُ بِطَبِيعَةِ الحالِ فى
تَشْجِيعِ الْمُيُولِ الْمُوسِيقِيَّةِ عِنْدَ سَيِّد دَرْوِيش
الصَّغِيرِ وتَنْمِيَتِهَا . .

وأَكْمَلَ والِدُ عَرَبِى :

ـ وشاءَتِ الأَقْدَارُ أَنْ يَلْتَقِيَ سَيِّد دَرْوِيش
بالمُدَرِّسِ نَفْسِهِ مرَّةً ثانِيَةً ، فِى المَدْرَسةِ الَّتِى
انْتَقَلَ إِلَيْهَا بَعْدَ أَن أَنْهَى دِرَاسَتَهُ فِى الكُتَّاب .
وكان ضابِطُ تِلْكَ المَدْرَسةِ مِنْ عُشَّاقِ المُوسِيقَى
أَيْضًا ، فساعَدَ المُدَرِّسُ والضَّابِطُ تِلمِيذَهُمَا عَلَى
حِفْظِ المَزِيدِ مِنَ المَقْطُوعات المُوسِيقِيَّةِ الشَّائِعَةِ
فِى ذَلِكَ الوَقْت ..

قالَتْ والِدَةُ عَرَبى :

ـ أَظُنُّ أَنَّهُ الْتَحق بَعْدَ ذَلِكَ بالمَعْهَد الدِّينى بالإسكندريَّة ..

فأَجاب والِدُ عَلْيَاءَ :

ـ هذا صحيحٌ ، فَقَدْ قَضَى عامَيْنِ بالمَعْهَد الدِّينى . إلاَّ أَنَّ تَعَلُّقَهُ بالإنْشَادِ فى الحَفَلاتِ والمُناسبات الدِّينيَّة ، تسبَّبَ فى عَدَمِ تَفَرُّغِه للدِّراسَة فاضْطُرَّ أَخيرًا إلىَ تَرْكِ المَعْهَد الدِّينى ..

ومَعَ ذَلِكَ ظَلَّ يَرْتَدِى « الجبَّةَ » والعمامَةَ سنوات طويلةً . ولم يتَخَلَّ عَنْ لَقَبِ الشَّيْخِ حتَّى وفاتِه عامَ ١٩٢٣ !

مضَتْ لحظَاتٌ وعَلْيَاءُ تَحْسُبُ وتَعُدُّ علَى أَصابِعِها . ثُمَّ قالَتْ فى أَسَف :

ـ إِذَنْ فَقَدْ تُوُفِّى وَهُوَ فِى الواحدَة والثَّلاثِين من عُمْره .. وَهُوَ شاب !

فقال والِدُها بِسُرعةٍ :

– كُلُّ شَيءٍ فَعَلَهُ سيِّد دَرْوِيش أَوْ جَرَى لَه فى حياتِه ، حدَثَ وهو صَغير ..

تُوُفِّيَ والِدُهُ وهو فى السَّابعة ..

وتزَوَّجَ وَهُوَ فى السَّادِسَةَ عَشْرَةَ ، فأَصْبَحَ مَسْئُولاً عَنْ زَوْجَتِهِ وأُمِّهِ وأَخواتِهِ ..

ولَمْ يَكُنْ مايَكْسبُهُ مِنْ إِحْيَاءِ الحَفَلاتِ والأَفْرَاحِ يَكْفِى لِلإِنْفَاقِ عَلَى أُسْرَتِه الكَبِيرَةِ ، فالْتَحَقَ بمجمُوعَةٍ مِنْ عُمَّالِ البِنَاءِ لِيقُومَ بطِلاءِ الجُدْرانِ ، مُقابِلَ أَجْرٍ لايَزِيدُ عَلَى قُرُوش قَليلَةَ كُلَّ يَوْم . وكان يُغَنِّى وَهُوَ يَعْمَلُ فيَسْمَعُهُ زُملاؤُهُ البَنَّاءُونَ فيَزْدادُ نشاطُهُمْ ، وظَلَّ يَعْمَلُ ويُغَنِّى إِلَى أَنْ لاحَظَ ذَلِكَ المُقَاوِلُ الَّذِى يَعمَلُ عِنْدَهُ ففَرَّغَهُ لِلْغِنَاءِ حَتَّى يَزِيدَ مِنْ إِنتاجِ عُمَّاله !

وبَيْنَما هو يُغَنّي ذاتَ يَوْمٍ سَمِعَهُ الأَخَوان « أَمين » و « سليم عطا الله » ، وهُمَا صاحِبا فِرقةٍ مِنْ فِرَقِ التَّمْثيلِ والغِنَاءِ ، فأُعْجِبَا بِهِ وضَمَّاهْ إلِي فِرْقَتِهِمَا بِأَجْرٍ يَبْلُغُ خَمْسَةً وأَرْبِعين جُنَيْهًا فِي الشَّهْر !

وَمَعَ تِلْكَ الفِرْقَةِ قامَ بِرِحْلَتِهِ الأُولَى إلَى بِلاَدِ الشَّام ..

قال والِدُ عَلْيَاء يَصِلُ كلامَهُ :

ـ قام سيِّد دَرْويش برحلَتِهِ الأُولَى إلى بِلَاد الشَّام عامَ ١٩٠٩ . إلاَّ أنَّهُ عادَ إلى الإسكندريَّة بَعْدَ عَشْرةِ شُهُور . ولم يَكْسبْ مِنْ هَذهِ الرِّحلَةَ شَيْئًا سِوَى الاستِمَاعِ إلى المُوسِيقَى العربِيَّة . وتَعَلَّم بَعْضِ الأُصُولِ الفَنِّيَّةِ للتَّلْحينِ أَخَذَها عَنْ أساتِذَةِ الشَّام ..

لَكِنَّهُ لَمْ يَلْقَ نجاحًا فِى الإسكندريَّة ، واضطَرَّتْهُ الحاجَةُ إلى الغِنَاء فى أماكِنِ اللَّهْوِ الرَّخيصِ بَيْنَ السَّكارَى والعابِثِين !

ولَمْ تُعْجبْ هَذِهِ الحالُ زَوْجَ شَقيقَته الَّذى كانَ يَعْمَلُ فى تجارَة الأثاثِ ، فأَقْسَمَ ألاَّ يَدْخُلَ

الشَّيْخُ سَيِّد منزلَهُ إلاَّ إذا تَرَكَ المُوسِيقَى والغناءَ نهائِيًّا !

وكان الشَّيْخُ سَيِّد يُحِبُّ شقيقَتَهُ كَثِيرًا ، فضَحَّى مِنْ أَجْلِها بالفَنِّ الَّذِى تَعلَّقَ بِهِ مُنْذُ طُفُولَتِهِ وعمِلَ كاتبًا عِنْدَ زَوْجِ شقيقَتِهِ !

قالَتْ عَلْيَاءُ فى أَسَف :

- ياخَسَارة ! لَوْ أَنَّهُ اسْتَمَرَّ فِى الغِنَاءِ لَقَدَّمَ لنا أَغانِىَ جَمِيلَةً كثيرةً مِثْلَ نَشِيدِ « بلادِى بلادِى » !

فَرَدَّ عَرَبِى بِسُرْعَةٍ وَهُوَ يَضْحَكُ :

- اطْمَئِنِّى ياعَلْيَاءُ ، فَقَدْ رَجَعَ سَيِّد دَرْوِيش إِلَى فَنِّهِ وحقَّقَ فيهِ نجاحًا عَظِيمًا ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ أَلَّفَ نَشِيدَ « بلادِى بلادِى » ولَحَّنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتِسْعِ سَنَوات تَقْرِيبًا .. عِنْدَما قامَتِ الثَّوْرَةُ ضد

الاحْتِلالِ الإِنْجِليزِىِّ عامَ ١٩١٩ !

واسْتَـأْنف والِدُ عَلْياءَ الحِكَايَةَ فقال :

– لَمْ يَسْتَطِعْ سَيِّد دَرْوِيش أَنْ يَبْتَعِدَ عَنِ المُوسِيقَى طَوِيلاً ، فانْضَمَّ مِنْ جَدِيدٍ إلَى فِرْقَةِ الأَخَوَيْنِ أَمِين وسليم عطاالله وسافَرَ مَعَهما إلَى الشَّام مَرَّةً ثَانِيَةً عامَ ١٩١٢ . وهُنَاك أَقامَ عامَيْنِ كَامِلَيْنِ ، يَدْرُسُ ويَحْفَظُ الكَثِيرَ مِنْ فُنُونِ المُوسِيقَى العربِيَّةِ والفارِسِيَّةِ والتُّركِيَّةِ الَّتِي تَجمَّعَتْ عناصِرُها المُخْتَلِفَةُ فِى بِلَادِ الشَّام ..

وَفِى عامِ ١٩١٤ عادَ الفنَّانُ العَبْقَرِىُّ إلَى الإِسكندريَّةِ ، لِيُقَدِّمَ إلَى عُشَّاقِ الطَّرَبِ مِنْ أَهْلِها أَغانِىَ جَمِيلَةً من تَأْلِيفِهِ وتَلْحِينه !

والواقِعُ أَنَّ كَثِيراً مِنْ نَجَاحِ مُلَحِّننَا العَظِيمِ

سَبَبُهُ ماتُمَيَّزَ به بَيْنَ مُلَحِّنِى زمانه ، فَقَدْ كَانَتْ لَهُ قُدْرَةٌ عَجِيبَةٌ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ مشاعِرِ النَّاسِ وكانَتْ أَلْحَانُهُ تُبْرِزُ مَعَانِيَ الكَلِمَات ..

فَهُوَ لَمْ يَكُنْ يُؤَلِّفُ شَيْئًا مِنَ الأَلْحَانِ ، إِلَّا إِذَا أَلْهَبَتْ حماسَةُ النَّاسِ مشاعِرَهُ ، كَمَا حَدَثَ عِنْدَما تَأَثَّرَ بِثَوْرَةِ ١٩١٩ فَأَلَّفَ نَشِيدَ « بلادِى بلادِى » ولَحَّنَه . .

كَذَلِكَ كانَتْ بَعْضُ أَلْحَانِهِ تُعَبِّرُ عَنْ شُعُورِهِ الخاصِّ بِمُنَاسَبَةٍ واقِعِيَّةٍ ، مِثالُ ذَلِكَ أُغْنِيَّةُ « زُورُونى كُل سنة مرَّة » ..

وهُنَا اعترَضَتْ عَلْيَاءُ قائِلَةً :

ـ زُورُونى كُل سنة مرَّة ؟ إِنَّها أُغْنِيَّةُ المُطْرِبَة « فَيْرُوز » يا أَبِى !

فتدخل عمها موضحا :

– يجب أن تميزي بين التلحين والغناء ياعلياء . فقد كان سيد درويش ملحنا عبقريا ، غير أنه كثيرا ما كان يعهد إلى غيره من المطربين بأداء الأغاني التي يلحنها ..

وبعد موته بخمسين سنة لازال المغنون والمغنيات يرددون ألحانه الخالدة !

* * *

استأنف والد علياء حديثه من حيث تركه ، فقال :

– كان سيد درويش قد أحب فتاة من بنات الإسكندرية ، وتواعدا على الزواج . وقبيل سفره إلى الشام أول مرة ، ودعته الفتاة

وطَلَبَتْ مِنْهُ وَهِيَ تَضْحَكُ أَنْ يَزُورَها كُلَّ سَنَةَ مرّة !

وَعِنْدَ عَوْدَتهِ مِنَ الشَّامِ ، فُوجِىءَ بأَنَّ الفتاةَ قَدْ تَزَوَّجَتْ بِغَيْرِهِ . وراح يتذَكَّرُ كَلِمَاتِهَا ، وشَيْئًا فشَيْئًا صاغَ مِنْها الأُغْنِيَّةَ المشْهُورةَ :

زُورُونى كُل سنة مرَّة !

سأَلَتْ عَلْيَاءُ فِى دَهْشَةٍ :

- أَلَمْ تَقُلْ ياوالِدِى إِنَّ سَيِّد دَرْوِيش تزَوَّج وهو فى السَّادِسَةَ عَشرَة ؟

فابتسمَتْ والِدَتُها و أَجابَتْ :

- بَعْضُ النَّاسِ لايُوَفَّقُونَ فِى زَوَاجِهِمْ ياعَلْيَاءُ ، ومُلَحِّنُنا العَظِيمُ لَمْ يَكُنْ سَعِيدًا فى حياتِهِ العائِلِيَّة . ولِهَذا فَقَدْ تَزَوَّجَ أَكْثَرَ مِنْ مرَّةٍ باحِثًا عَنِ السَّعادة ، والبَحْثُ عَنِ السَّعَادَةِ مِنْ حَقِّ كُلِّ إِنْسَان ..

و أَكْمَلَ والِدُها :

-وكانَتْ زَوْجَتُهُ الثَّانِيَةُ ابْنَةَ عَمِّه الَّتى أَنْجَبَ منْها طفْلَةً لَمْ تَلْبَثْ أَن تُوُفِيَّت ، ووَقَعَ خلافٌ

بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فانفَصَلا ، وتـأَلَّمَ سَيِّد دَرْوِيش لِذَلك كَثيراً ؛ وكانَ هَذَا مِنَ الأَسْبَابِ الَّتى دفعَتْهُ لِهَجْرِ الإِسكندريَّةِ إِلَى القاهِرَةِ مُنْذُ عامَ ١٩١٧ حَتَّى وفاتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ بِستِّ سَنَوَات ..

وَفِى تِلْكَ السَّنوات السِّتِّ أَبْدَعَ سَيِّد دَرْوِيش مِنَ الأَعمالِ المُوسِيقيَّةِ ماكَتَبَ لاسْمِه الخُلُودَ فى عالَمِ الأَلْحَانِ ، وخاصَّةً تِلْكَ الأَلْحانِ الرَّائِعَةِ الَّتى وضَعَها لِعِشْرِينَ مَسْرَحِيَّةً تَقْرِيبًا !

قالَ عَرَبِى بِفَخْرٍ :

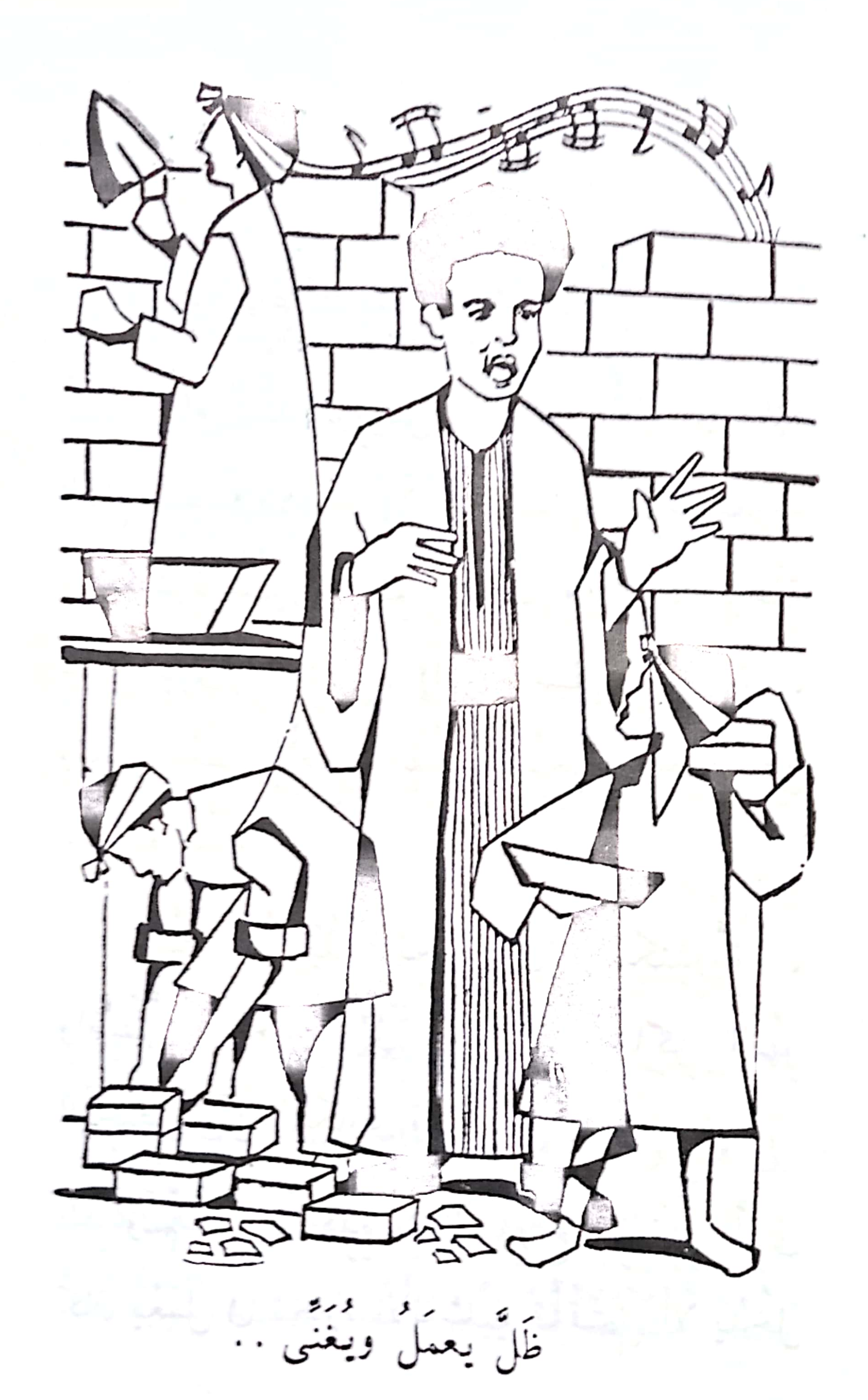
ـ لَقَدْ قَرَأْتُ ياعَمِّى عَنِ المَسْرَح الغِنَائِى الَّذى ازْدَهَرَ فى سَنَوات الحَرْبِ العالميَّةِ الأُولَى ومابَعْدَها ، حَتَّى أَنَّ الفِرَقَ المسرحيَّةَ كانَتْ تَتَنافَسُ عَلَى جَذْبِ العَباقِرَةِ مِنَ المُلَحِّنِينَ وَفِى مُقَدِّمَتِهِمْ سَيِّد دَرْوِيش ..

فنسمعُك شيئًا من الموسيقى !

ومن المذياع ارتفع لحنٌ معروفٌ ، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى كان الجميعُ يشتركون في ترديدِ النّشيدِ الوطنيّ المعروف :

« بلادى بلادى لكِ حُبّى وفؤادى
مِصْرُ يا أمّ البلاد أنتِ غايتى والمُراد
وعلى كُلّ العباد كَمْ لنيلِكِ من أيادى
مِصْرُ يا أرْضَ النّعيم سُدْتِ بالمجْدِ القديم
مَقْصدى دَفْعُ الغَريم وعلى الله اعتمادى
مِصْرُ أوْلادُكِ كِرام أوْفيا يرْعَوا الزمام
سَوْفَ تَحْظى بالمرام باتّحادهم واتّحادى
مِصْرُ أنْتِ أغْلى دُرَّة فوق جَبِينِ الدَّهْرِ غُرَّة
يا بلادى عِيشى حُرَّة واسْعَدِى رَغْمَ الأعادى »

* * *



ظَلَّ يعملُ ويُغَنِّى ..

فعقّبَ عمه مُؤَكدًا :

– هٰذَا صحيحٌ ، فَقَدْ قامَ الشَّيْخُ سيِّد بتَلْحِينِ عَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ المسرحيَّات لِفِرَقٍ مشهُورَةٍ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ . مِنْها فِرْقَةُ « جُورج أَبيض » . وفِرْقَةُ « نَجيبِ الرِّيحانى » . وفِرْقَةُ « عَلِى الكسَّار » وفِرْقَةُ « مُنيرة المهديَّة » ..

وتُعْتَبَرُ مسرحيَّةُ « العَشرة الطيِّبة » ، الَّتى لَحَّنهَا لِفِرْقَةِ نَجيب الرِّيحانى . فى القمَّة من حَيْثُ التَّجْدِيدِ والإِبْدَاعِ الفَنِّى . كما أَنَّهُ لَحَّنَ مَسْرَحِيَّتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ لِفِرْقَتِه الخاصَّة الَّتِي كَوَّنَها فِي أَواخِرِ حياتِه . هُمَا مسرحِيَّتا « شهر زاد » . و « البَروكة » ..

كَذَلِكَ خلَّفَ لنا سَيِّد دَرْوِيش الكثيرَ مِنَ الأَغانى والأَناشِيدِ الَّتى حَفظَها النَّاسُ ورَدَّدُوها .

أذكرُ مِنها نَشيدَ «مصر والسُّودان» الَّذى الأديبُ «بَديع خيْرِى» ونشرَهُ فى جريدَة اسمُها «السيف»، فلمَّا اطَّلَعَ عَلَيْهِ سَيِّد دَرْوِيش أعجبَهُ فلحَّنَهُ قَبْلَ أنْ يَلْتَقِيَ بِمُؤَلِفِهِ ..

والنَّشيدُ مكتُوبٌ بِلَهْجَة أَهْل السُّودان، مما يُضفِى عَلَيْهِ جمالاً خاصًّا يُمَيِّزُهُ عَنْ غيْرِهِ من الأغانِى والأناشِيد ..

وأضافَ والِدُ عَرَبِى :

– لقَدْ كانَ هذا النَّشيدُ فى وَقْتِهِ صَرْخَةً ضد الاسْتِعْمارِ الإنجليزِىّ الَّذى كانَ يُحاوِلُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ الإخْوَةِ فى مِصْرَ والسُّودان .. وانْتَشَرَ بَيْنَ النَّاسِ بِسُرْعَةٍ بِفَضْلِ اللَّحْنِ الَّذى وَضَعَهُ لَهُ سَيِّد دَرْوِيش !

ولَيْسَ هذا هُوَ اللَّحْنُ الوَحِيدُ الَّذى حارَبَ بِهِ

سَيد دَرْويش الاستعمارَ ، فَفِى لَحْنٍ آخَرَ اسْمُهُ «لَحْن العُمَّال» يتصَدَّى فنّانُ مِصْرَ العظيمُ لِسياسَةِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ أبناءِ مِصْرَ الَّتِى كان يَسْتَخْدِمُها الاستعمـارُ للتَّغَلُّبِ عَلَى المُقَاوَمَةِ الوطنيَّةِ .. وَيَنْتَشِرُ هذا اللَّحْنُ أيْضًا تَعْبيرًا عَنْ رَفْضِ الأُمَّةِ لِلتَّفْرِقَةِ الدِّينِيَّةِ !

وَمِنَ الأَناشيدِ الوطنيَّةِ الَّتِى لَحَّنها سيِّد دَرْويش ولاقَتْ ذُيُوعًا كَبيرًا ، نَشيدُ « بَنِى مِصْر » الَّذِى أَلَّفَهُ شاعِرُ مِصْرَ الكبيرُ « أَحْمَد شَوْقى ».. وَفيهِ يقولُ :

« نَرُوْمُ لِمِصْرَ عِزًّا لا يُرَامُ
يرفُّ عَلَى جوانِبِهِ السَّلامُ
وَيَنْعَمُ فيهِ جِيرَانٌ كِرَامُ
فَلَنْ تَجِدَ النَّزيلَ بِهِ شَقِيًّا

نَقُومُ عَلَى الْبِنَايَةِ مُحْسِنِينا
ونَعْهَدُ بِالتَّمَامِ إلى بَنِينَا
نَمُوتُ فِدَاكِ مِصْرُ كما حَيِينا
ويَبْقَى وَجْهُكِ المفدىُّ حَيًّا»

مَضَتْ لَحَظَاتٌ مِنَ الصَّمْت . .

ثم صفَّقَتْ عَلْيَاءُ فى حَمَاسة . .

وصفَّقَ مَعَها عَرَبِى وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْها مُبْتَسِمًا . .

فقَال والِدُ عَرَبِى :

ـ التَّصفيقُ وحْدَهُ لا يَكْفِى لِتَقْدِيرِ الْمُوسِيقَارِ الْمُنَاضِلِ سَيِّد دَرْوِيش ، فقَدْ كَانَ تَعْبِيرُهُ الفَنِّىُّ الرَّائعُ عَنْ وَحْدَةِ الشَّعْبِ الْمِصْرِىِّ . . وتَصْمِيمِ الأُمَّة على التَّخَلُّصِ مِنَ الاسْتِعْمَارِ . . كَانَ ذَلك سَبَبًا فى اصْطِدَامِ فَنَّانِ الشَّعْبِ الْعَبْقَرِىِّ بالإنْجِلِيزِ كُلَّمَا قَدَّمَ للجَمَاهِيرِ لَحْنًا جَدِيدًا !

لَكِنَّ تَهْدِيدَ الإِنْجليزِ ، وَوَعِيدَهُمْ ، لَمْ يُؤَثِّرَا فى وَطَنِيَّةِ الشَّيْخِ سيِّد دَرْويش . . الَّذى اسْتَمَرَّ يُحارب مِنْ أَجْلِ الحُرِّيَّةِ بِطَرِيقَتِهِ الخَاصَّةِ : الكَلِمَةِ . . والأَلْحَان !



الكَلمَة . . والألحَان . .

انْدَفَعَت السَّيَّارَةُ على الطَّرِيقِ إلى الإسكندرِيَّةِ ، واسْتَمَرَّ رُكَّابُهَا يتبادَلُون الحَدِيث . .

قال والِدُ عَلْياءَ :

– الحَقِيقَةُ أَنَّ سَيِّد دَرْويش تَرَكَ تُرَاثًا ضَخْمًا مِنَ الأَلْحَانِ الْمُعَبِّرَةِ عَنِ الأَفْكَارِ الَّتى كانَتْ تَشْغَلُ طَوَائِفَ الشَّعْبِ جَمِيعَهَا . .

السَّقاءُونَ الَّذِينَ ينقُلونَ الماءَ إلَى المنازِلِ داخِلَ قِرَبٍ يَحْمِلُونَهَا عَلَى ظُهُورِهِم . .

الحمَّارُون الَّذين يُؤَجِّرُونَ حَمِيرَهُمْ لِلرُّكَّاب . .

العُمَّالُ والْمُوَظَّفُونَ ، والحَمَّالُون ، وغَيْرُهُمْ . . وغيرُهُمْ . .

سأَلَتْ عَلْيَاءُ :

— لَكِنْ كَيْفَ عَمِلَ كُلَّ هذِهِ الأَلْحَانِ فِي تِلْكَ الفَتْرَةِ القَصِيرَةِ من حياتِه ؟

فابتَسَمَ والِدُهَا وأَجابَ :

— كانَ أَحْيَانًا يَحْبِسُ نَفْسَهُ فِي غُرْفَتِه ، فلا يَخْرُجُ مِنْهَا إلاَّ بَعْدَ أَنْ يُتِمَّ اللَّحْنَ الَّذِى يقُومُ بإعْدَادِهِ .. حَتَّى لَوْ طالَ حَبْسُهُ الاختيارِيُّ هذا عِدَّةَ أَيَّام !

قالَتْ عَلْيَاءُ وَهِىَ تَهُزُّ رَأْسَهَا مُؤَكِّدَةً :

— لِهَذَا مات صغِيرًا !

فابْتَسَمَ والِدُهَا ورَدَّ قائِلًا :

— صَحِيحٌ أَنَّ الأَعْمَارَ بِيَدِ اللهِ يا عَلْيَاءُ ، لَكِنَّ العملَ الْمُتَّصلَ والشَّاقَّ فى التَّأْلِيفِ والتَّلْحِينِ ، وقيامَهُ بإدَارَةِ فِرْقَتِهِ الخاصة والْمَجْهُودَ الَّذِى بَذَلَهُ من أَجْلِ تَوْفير الْمَال اللاَّزمِ لها . . وعَدَمَ

اسْتِقْرَارِهِ فى حَيَاتِه .. رُبَّمَا كانَ ذَلكَ كُلُّهُ سَبَبًا مِنْ أسبابِ مَوْتِهِ الْمُبَكِّر !

وخَيَّمَ الصَّمْتُ بَعْضَ الوَقتِ ، ثُمَّ اسْتَنْشَقَ عَرَبِى الهواءَ فى شَهِيقٍ عَمِيقٍ وقال وهُوَ يَضْحَكُ :

– أَشَمُّ رائِحَةَ البحر ! رائِحَةَ الإِسكندريَّة.. بَلَدِ الشَّيْخِ سَيِّد دَرْوِيش !

ثُمَّ أَكْمَلَ بصَوْتٍ جادٍّ :

– وإِنَّنى أُحِبُّ أَنْ أَنتَهِزَ فُرْصَةَ إِقَامَتِنَا بالإِسكندريَّةِ لِزيَارةِ الحَىِّ الَّذِى وُلِدَ فيهِ فَنَّانُ مِصْرَ الْمُنَاضِل . .

فقال والِدُهُ :

يقَعُ الشَّارِعُ الَّذى وُلِدَ فيه بِحَىِّ « الأَنفُوشى » قَرِيبًا من قَصْرِ « رأْسِ التِّين » ، وهو يَحْمِلُ اسْمَهُ الآن ..

وَهَذا أَحَدُ مظاهِرِ التَّكْرِيم لفنانِنا العَظِيم ..

وإذا كانَت الدَّوْلَةُ قَدْ أصدرَتْ عام ١٩٥٨ الطَّابِعَ التَّذْكارِيَّ الَّذِى رأَتْهُ عَلْيَاءُ عِنْدَ صديقتها ، فَقَدْ رثاهُ قَبْلَ ذلك كِبَارُ أُدبائنا .. وَفى مُقَدِّمَتِهِمْ « أَحْمد شَوْقى » ..و « عبَّاس محمود العقَّاد » .. و « خَلِيل مُطْران » ..

كمـا أُقِيمَ لَهُ تِمْثـالٌ بِحَدِيقَةِ الخالِدِين بالإسكندريَّةِ ، إلَى جِوَارِ تِمْثالِ لِفنَّانٍ عَظِيمٍ آخر مِنْ فنَّانِينَا هُوَ « الشَّيْخُ سلامَة حجازِى » ..

ضحِكَتْ عَلْيَاءُ وقالَتْ :

— فى رِحْلَةِ العَوْدَةِ بإذْنِ الله تُحَدِّثُنا ياعمّى عنْ « سلامَة حجازى » ، فنكُونُ قد جِئْنَا مَعَ الغناءِ والمُوسِيقَى وعُدْنَا مَعَ الغِنَاءِ والمُوسِيقَى !

فضحِكَ الجمِيع ..